# المحور الأول

## الجذور التاريخية للنفوذ الإيراني في العالم الإسلامي
## التلاقي القومي الفارسي والمذهبي الشيعي منذ العصر الصفوي

يلتقي العديد من المؤرخين الأوربيين والمسلمين علي السواء عند اعتبار الدولة الصفوية التي تأسست في القرن الخامس عشر الميلادي دولة قومية فارسية في المقام الأول ثم شيعية في المقام الثاني علي الرغم من كونها تعود إلي جذور كردية وتركية سنية، فقد تحولت من كونها أسرة صوفية سنية في مراحلها الأولي إلي تبني المذهب الشيعي الإثنا عشري الجعفري ( نسبة إلي الإمام جعفر الصادق ) وفرضه علي المناطق التي سيطرت عليها بحيث جعلت منه إطاراً قومياً أو وطنياً ساعدها علي إحكام السيطرة علي العرقيات التي تكونت منها دولتهم الأولي، ولعل في ذلك ما يشير إلي احتواء أدبيات المذهب الشيعي في صورته الإيرانية منذ البداية إلي استيعاب النزعة العرقية التي تفوق أدبيات التلاقي مع المذاهب والفرق الإسلامية الأخرى.

واختلفت المصادر في تحديد نسب هذه الأسرة الصفوية حيث ربط البعض نسب مؤسسها الشيخ صفي الدين الأردبيلي إلي الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، في حين أرجعه البعض الآخر إلي أصول أزربيجانية وأنه من أصل آري قديم . ولعل في الاتجاهين ما يهدف إلي ربطه بجذور قومية من جهة ثم شيعية من جهة أخري تلتقيان عند حد تدعيم الجذور القومية بالمذهبية ، كما أن البعض يري أن هذه الجذور قد أسهمت في إيجاد مبرر لمحاربته لأهل السنة المتمثلين في الأوزبك والتركمان في الشرق والعثمانيين في الغرب منذ بداية تأسيس هذه الدولة .

وفي الوقت الذي كانت فيه اللغة الأزربيجانية هي لغة كبار الدولة بحكم انتماء قادتها للعنصر الأزربيجاني كما اتجهت بعض الروايات ، كانت اللغة الفارسية العرقية هي اللغة الرسمية لهذه الدولة منذ البداية ، كما كانت لغة الخطابة المذهبية في المساجد التي هاجمت الخلفاء الثلاثة الأول للنبي صلي الله عليه وسلم أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم .

علي أن مذهب أهل السنة والجماعة في هذه الدولة قد ظل رغم ذلك قوياً وثابتاً بين العديد من العلماء والوجهاء لفترة زمنية ليست بالقليلة ، وإن كان البعض منهم قد اضطر إلي الهجرة أو الهرب إلي أراضي الدولة العثمانية السنية غرباً أو أراضي الأوزبك والأفغان شرقاً في المراحل التي شهدت غلوّاً في الصراع المذهبي ضدهم خلال هذه الفترة.

وقد لعب الصراع المذهبي الشيعي السني دوراً بارزاً في إضعاف الكيانات والقوي الإسلامية وعدم التفاتها إلي أطماع القوي الدولية في أراضي المسلمين في هذه الفترة المبكرة التي صاحبت ظهور الدولة الصفوية .

فحين دخل الأوزبك أراضي خراسان لضمها إليهم وقضوا علي سلطانها حسين بيقرا آخر الأمراء التيموريين وثبتوا أقدامهم في بلاد ما وراء النهر، ثم حاولوا دخول كابل ، وقف السلطان إسماعيل الصفوي مؤسس الدولة الصفوية الشيعية ، ومن منظور مذهبي ، أمامهم وأعادهم إلي بلادهم وأعاد سلطان كابل المهزوم إليها ، ولكن لقاء ذلك فرض عليه ضرورة اعتناق المذهب الشيعي وفرضه علي قومه ، وارتكب العديد من المذابح لإرغامهم علي هذا الاعتناق مما دفع أهل البلاد إلي مساندة عودة الأوزبك السنة مفضلين سيطرتهم كمحتلين مع الاحتفاظ بمذهبهم السني علي أن يكونوا أحراراً ويفرض عليهم المذهب الشيعي

وقد واكب هذه الصراعات نمو الدور الروسي الذي كان علي حسابها ودون أن يوجه الصفويون جهودهم فرادي أو مجتمعين مع المسلمين السنة كالعثمانيين إلي الجبهة الروسية، كما لم يتصلوا، أو يأبهوا ، بالقوي الإسلامية الأخرى للوقوف أمام ما كان يحيط بالمسلمين في الأندلس وتعرضهم للطرد والإبادة ، وقد أبدي بعض المؤرّخين في رصده لهذه الأحداث تعجباً من سقوط المسلمين في الصراع المذهبي الدموي دون الانتباه إلي نمو الدور الروسي والأوربي الذي اتجه إلي بلادهم كنتيجة لعدم تنبههم له ، وانفراد العثمانيين بدور المقاومة علي كل الجبهات الروسية والأوربية شمالا وغربا والمذهبية الصفوية في الشرق .

وحين حاول أحد قادة الصفويين وهو الشاه إسماعيل الثاني الذي تولي في أواخر القرن السادس عشر أن يحد من سطوة علماء الشيعة بأن أبعدهم عن مواطن السلطة والتأثير كي يمنع الوسائل المعادية للسنة والمتمثلة في تأجيج الصراع المذهبي وسب الخلفاء وغير ذلك وقفت أمامه العديد من القوي الشيعية والقوميات المتعصبة وحاولوا إثناءه عن موقفه، ولما رفض الخضوع لهم وواصل محاولاته لإقناعهم بأهداف توجهه وما قد يؤدي إليه من تلاقي المسلمين وتوحدهم كادوا له ودبروا حتى تمكنوا من قتله وهو لم يزل صغيراً وفي بدايات حكمه. ولعل في ذلك ما يشير إلي وجود معتدلين من الشيعة من الممكن أن يشاركوا في التقارب أو التلاقي المذهبي الديني كما هو الشأن عند السنة، إلي جانب متعصبين يغلّبون البعد القومي علي حساب البعد الإسلامي في علاقتهم مع الجناح السني .

وظلت الغلبة لأتباع التوجّه القومي المذهبي الشيعي الذين استمروا في إعلان عدائهم لأهل السنة خلال المراحل المتتالية حتى العصر الحديث وحتى بعد تحول اسم الدولة من فارس إلي إيران ١٩٣٥ م . فإيران مشتقة من الانتماء للشعوب الآرية التي هاجرت واستوطنت منطقة بلاد فارس في العصور القديمة ، ومعناها موطن الآريين ، ولم يكن هذا

الإسم يستخدم في العصور الإسلامية ، فاستخدم إسم فارس إلي أن استبدله الشاه محمد رضا بهلوي إلي إيران تأكيداً لبعد قومي أكثر تعصباً ، أو تتويجاً لتوجّه عام له جذوره التاريخية سواء في اسم إيران أو في اسم بهلوي حيث هو اسم اللغة التي كانت سائدة في إيران قبل الإسلام .

ولعل نمو التيار القومي العربي وظهوره علي المسرح السياسي في الجناح الإسلامي السني في أعقاب الحرب العالمية الثانية لم يغير في تبلور التيار القومي الإيراني ، لكن غلوّ التيارين قد لعب دوراً واضحاً ، إلي جانب عوامل أخري تتصل في جانب مؤثر منها بالقوي الاستعمارية ، في الصدام العسكري بين أحد أقطاب المد القومي العربي وهو صدام حسين مدعوماً بالقوي العربية وبين الثورة الإسلامية الإيرانية التي سعت للتقليل من الغلو القومي والمذهبي في بلادها ، إلا أن هذا الحدث قد أسهم في استمرار قدر كبير من أدبيات الغلوّ القومي الإيراني والمذهبي الشيعي الذي حاولت الثورة الحد منه عند بداية قيامها . وبالتالي فإن استمرار النزعة القومية الإيرانية في بعض أدبيات الثورة الإيرانية إلي الآن والذي يراه البعض مناقضا للمنهج الإسلامي الذي تعلنه وتعليه إنما هو في جانب كبير منه من قبيل رد الفعل للغلو القومي العربي الذي تجسّد في حربها معه أكثر من كونه متصلا بالجذور التاريخية الإيرانية وهو علي الأقل ما تمليه عليهم ظروف العلاقات الدولية المعاصرة .

كما أن تواري التيار السياسي الإسلامي في الجناح السني بسبب صدامه مع التيار القومي قد أسهم في علو المد الإسلامي الشيعي الذي ظهر مع الثورة الإيرانية والذي قدّم نموذجاً للتلاقي الإسلامي القومي علي الساحة السياسية دون التمسح في التحديات التي يواجهها كما هو شأن الأنظمة السياسية السنية، وقدّم كذلك نموذجاً لديمقراطية تخصه وتتواءم مع جذوره الثقافية متفوقاً علي الجناح السني إسلامياً وسياسياً .

وعلي الرغم من ذلك فإن أبعاد التعصب المذهبي الشيعي السني قد عادت لتسطو علي ساحة العلاقات الإيرانية العربية بعد احتلال الأمريكيين لأفغانستان ثم العراق وسقوط أحد الرموز القومية العربية السنية وهو صدّام حسين، وتسيّد العناصر الشيعية للساحة السياسية العراقية. ولعل استشعار البعض من أهل السنة لدور إيراني قادم يغلّب فيه البعد المذهبي علي البعد السياسي في مساعدة الأمريكيين علي احتلال هاتين الدولتين السنيتين هو الدافع في اتجاه الكثير من مفكري وفقهاء السنة لاستنهاض شعوبهم في حد ذاتها أو في مساعدة الأمريكيين في ضرب إيران قبل أن يستفحل دورها العسكري والنووي الذي سيطلق يدها في المنطقة والذي سيكون علي حساب الجناح السني .

وبنفس القدر يندفع بعض فقهاء وسياسيي الشيعة للهجوم علي أهل السنة من منظور مذهبي وسياسي بشكل سمح للقوي الدولية المعادية في حقيقتها للجناحين معاً لأن تستثمر العديد من تراكمات هذا التراشق وخزائنه المتلئة بالدلائل بجذوره التاريخية والمعاصرة، وأصبحت هذه القوي الدولية للأسف تجيد اللعب في دفع القوي الإقليمية الإسلامية إلي التصادم أو الهدوء وفق ما يتفق ومصالحها في المنطقة .

ومن الأمثلة التي رصدها بعض كتّاب الجناح السني حول تأكيد استمرار الغلوّ القومي والمذهبي الإيراني وجود قبر أبو لؤلؤة المجوسي قاتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه والذي يطلق عليه ( بابا شجاع الدين ) في أحد ميادين مدينة كاشان الإيرانية واستمراره كمقام يزوره الإيرانيون حتى الآن .

وطرح البعض الآخر من الكتّاب السنة في معرض هجومه علي الشيعة تساؤلاً حول سبب تعظيم الإيرانيين الشيعة لأبناء الحسين بن علي رضي الله عنه دون بقية أبناء علي كرم الله وجهه كالحسن بن علي وأبو بكر بن علي وعثمان بن علي وأبو بكر بن الحسين

وعمر بن الحسين وعثمان بن الحسين وأبو بكر وعمر أبناء الحسن، علي الرغم من أن بعضهم قد استشهد في كربلاء مع الإمام الحسين. ورأي هؤلاء أن السبب في تعظيم الحسين وحده يرجع إلي أن زوجته كانت فارسية، فهي شهر بانو ابنة يزدجرد آخر ملوك الفرس التي تزوجها بعد معركة القادسية، وأن رفضهم تعظيم من يحمل أسماء الخلفاء الثلاثة رغم استشهاد بعضهم يؤكد التأثير الفارسي القومي الذي يفوق التأثير المذهبي.

واستدل هذا البعض ممن يسيرون فيما يوجهه هذا التفسير بما ذكره أحد الباحثين الشيعة المقيم في فرنسا وهو محمد علي أمير معزي من أن المفاهيم الأساسية من الزردشتية القديمة قد دخلت في التشيّع حتى في بعض الجزئيات الصغيرة ، فأصبح زواج الحسين من ابنة آخر ملوك ساسان رمزاً لإيران بحيث أصبحت تلك الفتاة هي الأم الأولي لجميع أئمتهم ، وقد انعقد بها عقد الأخوة بين التشيع الإسلامي وإيران المجوسية القديمة .

ورصد هذا البعض أيضا استمرار التعصب القومي والمذهبي في إيران حتى بعد قيام الثورة الإسلامية حيث ورد علي لسان أحد قيادات الثورة من طلاب جامعة طهران، وهو مهاجري نجاد ، في خطبة عامة " أن عمر الحضارة الإيرانية يمتد إلي ما قبل ثلاثة آلاف سنة ، وأن الذين يريدون أن يتجاهلوا هذا التاريخ ويختصروه في ألف وأربعمائة سنة ، وهو عمر الدعوة الإسلامية ، إنما يريدون أن يسحقوا هويتنا وينهوا وجودنا " . كما أن دستور إيران الذي أقرته الثورة يؤكد بأن الإسلام هو دين الدولة علي المذهب الجعفري الإثنا عشري وفي نفس الوقت أن يكون رئيس الدولة فارسيا ، وهو أمر يستدل به البعض علي أنه تأكيد للبعد العرقي والمذهبي لهذه الثورة .

وبغض النظر عن الدوافع والأهداف التي تقف وراء هذا التوجه الذي يسهم في تعميق العداء بين جناحي العالم الإسلامي، والمدعوم من أعدائهم ، إلا أن حقيقة الغلوّ

القومي الإيراني والغلوّ المذهبي كذلك هو حقيقة واضحة تشكّل أساساً في التكوين الثقافي للإيرانيين بالشكل الذي قد يسهم في تحديد وتوجّه سياسة قادتهم تجاه العرب أو غيرهم من العالم السني .

كما أن هناك توجّه مقابل بين السنة المسلمين يحصر استقراءه للأحداث وتحليلها في زاوية التحليل المذهبي الضيق ويفعّل بقصد أو بغير قصد تعميق غير المسلمين لهذا البعد، ويسعى للتأثير بها علي صانعي القرار السياسي ، وهي أمور ينبغي إدراكها في استقراء العلاقات العربية الإيرانية ، أو الإسلامية الإسلامية .

## التقارب الصفوي الأوربي حول تقاسم النفوذ في العالم السني في مطلع العصور الحديثة

تؤكد الوقائع التاريخية وجود أوجه تشابه بين بعض أحداث الهجمة الاستعمارية الأوربية في مطلع العصور الحديثة علي العالم الإسلامي في نهاية القرن الخامس عشر وطوال القرن السادس عشر متمثلة في الدور البرتغالي في البداية والذي أعقبه بقية أدوار الاستعمار الأوربي حيث تنافس الجميع علي إخضاع العالم الإسلامي وتحقيق مطامعهم ومصالحهم علي حساب شعوبه وبين الهجمة الاستعمارية الأمريكية الأوربية الصهيونية المعاصرة التي بدأت مع بزوغ القرن الواحد والعشرين والتي يقودها جورج بوش الإبن .

وتمثل النقطة الأولي والأساسية في وجه التشابه بين الهجمتين استخدام الطابع الديني العدائى ضد الإسلام والمسلمين كغطاء للمصالح الاقتصادية والأطماع السياسية . فقد تجسّد الطابع الديني في الهجمة الأولي في نداء المتعصب البرتغالي ألبوكيرك إلي ضرورة هدم الكعبة ونبش قبر النبي محمد ( عليه الصلاة والسلام ) وإنهاء ما كان يعتبره أسطورة هذا الدين الكاذب، في حين كان الهدف الحقيقي من هذه الهجمة هو تمكين الطامعين والمغامرين السياسيين من مفاتيح التجارة العالمية وممراتها بين الشرق والغرب والمتمثلة في العالم الإسلامي وإنهاء احتكار المسلمين للطرق الرئيسية للتجارة العالمية بين الشرق والغرب والتي كان الهدف الديني من أهم وسائلها لكونه كان أكثر رواجا بين العامة في أوربا.

ويقابل ذلك في الهجمة المعاصرة نداء الرئيس الأمريكي جورج بوش الإبن عند احتلاله لأفغانستان ثم العراق بأنه بداية حرب صليبية أيده فيها بعض أقطاب نظامه ممن عرفوا بسبب ذلك بالمحافظين الجدد، وكذلك بعض ساسة أوربا، وما استتبع ذلك من ضرورات استكمال الحرب المقدسة التي فرضت تكفير وتحريم من يدعو إلي مقاومتهم من

العناصر المسلمة متهمة دعاتها بالتطرف والإرهاب والقرصنة وغير ذلك من مصطلحاتهم الموروثة والجاهزة ، في حين تخفي حقيقة الأطماع الاقتصادية حول النفط وشركات بيع السلاح وشركات تأجير الجنود المرتزقة وغيره في أمريكا وأوربا وإسرائيل ، بل وحتى في روسيا والصين .

وهناك وجه آخر للشبه بين هاتين الهجمتين الاستعماريتين يتمثل في الدور الذي لعبه المستعمرون الأوربيون علي عامل الصراع المذهبي السني والشيعي بين المسلمين كأحد الأدوات السياسية التي تمكنهم من السيطرة علي الشعوب المعتنقة للمذهبين معا ، فالبرتغاليون استعانوا بالصفويين الشيعة فترة زمنية عندما ووجهوا بمقاومة سنية في البحر المتوسط والبحر الأحمر وبحر العرب قام بها المماليك في البداية ثم تولاها العثمانيون بعدهم ثم نجحوا من خلال لعبة المصالح الاقتصادية والسياسية في تعميق الخلاف أو العداء بين أتباع المذهبين ودفعهم إلي الصدام حتى أضعف كل منهما الآخر مما هيأ للغرب فرص السيطرة علي العالم الإسلامي بأسره .

وهذا الدور نفسه يقوم به المستعمرون الأمريكيون الجدد حيث يسعون إلي إثارة الفرقة بين المسلمين من خلال التركيز علي جوانب الخلاف المذهبي بحيث يدفعهم ذلك إلي الصدام والخلاف والعداء كما حدث إبان الحرب العراقية الإيرانية ، ثم الاستعانة بالشيعة لتحطيم قوي سنية كاحتلال أفغانستان ثم العراق ، ثم العودة لحشد طاقة السنة ضد الشيعة وهو ما يخطط له الأمريكيون والإسرائيليون الآن . ولعل ذلك هو ما يدعو لاستقراء أحداث التاريخ في الهجمة الاستعمارية الأولي علّها توضح ما قد يعين علي فهم أبعاد الدور الاستعماري المعاصر.

فقد اندفع الأسبان والبرتغاليون تحت غطاء روح دينية صليبية متعصبة ضد المشرق الإسلامي حيث أغرتهم انتصاراتهم الدينية علي المسلمين في الأندلس ونجاحهم في طرد المسلمين منها ، ولقي اتجاههم هذا تأييداً من البابوية في روما بنفس القدر الذي أثارت به حماسهم طوال حربهم ضد المسلمين في الأندلس ، وفي نفس الوقت استثمرت البرجوازية الناشئة هذا التوجه للقيام بحملات بقصد الدعم الاقتصاد وتحقيق قدر من الثراء.

ونجحت القوات الأسبانية والبرتغالية في احتلال العديد من المراكز والموانئ الساحلية الإسلامية في الشمال الإفريقي مثل سبتة ومليلة وطنجة وأصيلا ووهران وغيرها، ووضعت خططها للإجهاز علي بقية هذا الساحل بغية الوثوب منه إلي مصر ثم الجزيرة العربية . وارتفعت الشعارات الدينية الحماسية المتعصبة الداعية إلي العمل علي إعادة المسلمين إلي صحراء العرب التي انطلقوا منها ، بل وذهبت هذه الشعارات إلي حد المناداة بنبش قبر النبي محمد ( صلي الله عليه وسلم ) وهدم الكعبة في مكة وإنهاء الوجود الإسلامي من أساسه .

لكن هذه المخططات قد واجهت صعوبات شديدة بسبب حركة الجهاد والمقاومة الإسلامية التي قادها الأخوين عرّوج وخير الدين بربروسا في البحر المتوسط والتي لقيت دعماً من الدولة العثمانية أسهم في زيادة قوتها واستمرار صمودها واستعادتها لبعض المراكز التي احتلت ، فسارع الأوربيون لاتهامها بالقرصنة والإرهاب والتطرف التي امتلأت بها كتبهم التاريخية والتي ما زالت موضع اهتمام المثقفين الأوربيين حتى الآن .

ولم يثن ذلك البرتغاليين عن مواصلة دورهم المعادي للمسلمين فاندفعوا إلي طريق رأس الرجاء الصالح ثم جاءوا إلي المداخل التجارية الإسلامية من البحر الأحمر والخليج

العربي متخذين من الحبشة قاعدة ومدفوعين بنفس الأهداف التي أخفوا خلفها حقيقة أطماعهم الاقتصادية والسياسية علي حساب الشرق الإسلامي .

ولعل من أهم العوامل التي لعبت دوراً في تحقيق هذه الأهداف الاستعمارية في هذه الفترة دور اليهود وكذلك الدور الصفوي الشيعي المعادي للدور السني العثماني الذي كان يواصل دور المقاومة ضد هذه الهجمة الاستعمارية ، فقد لعب اليهود الفارين من الأندلس والذين كانوا ينعمون بالاستقرار في ظل الوجود الإسلامي فيها دوراً مسانداً للمسلمين السنة حين قدّموا للسلطان العثماني وثائق بالمخططات البرتغالية ضد المقدسات الإسلامية مدعّمة بالخرائط ، وتضمنت هذه الوثائق ما يوضح التقارب الصفوي البرتغالي ومدي أطماعهم في المشرق العربي السني وعدائهم للعثمانيين السنة الذين يعطلون تحقيق هذه الأطماع .

ومما زاد من تأكد العثمانيين، الذين تزعموا الدفاع عن الجناح السني في العالم الإسلامي بعد أن فشلت محاولاتهم في التقريب بين المسلمين أمام الخطر الأوربي ، من التوافق أو الاتفاق الصفوي البرتغالي مسيرة الأحداث نفسها والتي سبقت وجودهم في المشرق العربي ، ففي الوقت الذي احتل فيه الصفويون الشيعة العراق في ١٥٠٨ م ، وسعوا لزيادة نفوذهم في الشام والحجاز ، كان البرتغاليون قد بدأوا في تنفيذ مخططهم فاصطدموا بالمماليك وهزموهم في معركة ديو البحرية ١٥٠٩ م . وبعد عدة أشهر من هذه المعركة تمكن شريف مكة بركات من القبض علي ثلاثة من الجواسيس البرتغاليين داخل مكة ١٥١٠ م فأرسلهم بما لديهم من مخططات وخرائط لسلطان المماليك في مصر .

وحين استشعر البرتغاليون إمكانية تدخل العثمانيين إلي جانب المماليك اتفقوا مع الصفويين علي مواجهة العثمانيين في الشمال كي يعطل ذلك دورهم في الجبهة الجنوبية مع البرتغاليين، وطمأنهم علي جبهتهم الجنوبية في الخليج العربي .

وتؤكد الوثائق علي مشروع تحالف بين غلاة القادة المتعصبين دينياً من البرتغاليين وبين الصفويين الشيعة ضد المسلمين السنة، فقد أرسل ألبوكيرك رسالة إلي الشاه إسماعيل الصفوي جاء فيها : " إني أقدر لك احترامك للمسيحيين في بلادك ، وأعرض عليك الأسطول والجند والأسلحة لاستخدامها ضد قلاع الترك في الهند ، وإذا أردت أن تنقضّ علي بلاد العرب أو تهاجم مكة فستجدني بجانبك في البحر الأحمر أمام جدة أو عدن أو في البحرين أو القطيف أو البصرة ، وسيجدني الشاه بجانبه علي امتداد الساحل الفارسي وسأنفذ له كل ما يريد " . وقد تضمن مشروع التحالف البرتغالي الصفوي تقسيم المشرق العربي إلي مناطق نفوذ بينهما حيث اقترح أن يحتل الصفويون مصر ويحتل البرتغاليون فلسطين .

ومن جهة أخري كان الصفويون قد حاولوا عن طريق بعض العناصر الشيعية الموالية داخل الدولة العثمانية لهم والمنتشرة في الأناضول القيام بثورة داخلية ضد الحكم العثماني السني ، وبالفعل تمكنوا من إشعال ثورة بزعامة شاه قولي في نهاية عهد بايزيد الثاني ظلت تحدث أثراً حتى أخمدها ابنه سليم الأول ، وأدي ذلك إلي اتخاذ سياسة تتسم بالحذر تجاه العناصر الشيعية داخل بلاده حيث عمل علي محاصرة بعضهم واضطهاد البعض الآخر. ورد الصفويون علي ذلك بإقامة مذابح في العناصر السنية لديهم، وأسهمت هذه التطورات إلي حدوث صدام مسلح بين الجانبين انتهي بانتصار العثمانيين في سهل جالديران في ١٥١٤ م.

ولعلنا نستطيع أن نستنبط من تجارب هذه الحقبة التاريخية من أن البعد المذهبي القومي قد تكون له الغلبة علي التلاقي الديني من جهة ، وقد يكون العامل المذهبي كذلك وسيلة من وسائل الإثارة وإحداث القلاقل والثورة لدي الخصم من جهة أخري ، وهي أمور تستوجب الانتباه والسعي إلي تفهمها والتعامل معها من جهة ثالثة .

ومن الأمور التي تستوجب الاستقراء كذلك دور القوي الاستعمارية المعادية في استخدام الخلاف المذهبي ودفعه إلي أن يصل إلي حجم الصراع وإحداث الصدام بين أتباع الدين الواحد ما بقي ذلك يحقق أو يساير مصالحهم .

ففي أعقاب الصدام العثماني الصفوي ، والذي لعب فيه البعد المذهبي دوراً مؤثراً ، سعي البرتغاليون لعقد اتفاقية مع الجانب الصفوي المهزوم قبلها الشاه إسماعيل وهي اتفاقية هرمز أقر بمقتضاها الجانب الصفوي باحتلال البرتغاليين لجزيرة هرمز مقابل مساعدة الشاه علي غزو البحرين والقطيف ، إلي جانب تعهدهم بمساعدته ضد العثمانيين مقابل تنازله عن ميناء جوادر علي ساحل بلوشستان مقابل فتح ميناء جوا للتجار الفرس .

وشكّل الصفويون بمقتضي هذه المعاهدة نقطة حراسة ومراقبة للطرق الموصلة إلي الهند ، وكذلك دعماً لتطلعات البرتغاليين في الخليج العربي . وحين حاول حاكم هرمز السني شيخ عطار مقاومة احتلال البرتغاليين لبلاده ساعد الصفويون القائد البرتغالي ألبوكيرك في إعادة احتلاله الجزيرة وكذلك توطيد نفوذه في بعض مراكز الخليج ، وجدد الشاه إسماعيل توقيع اتفاقية مفصلة مع البرتغاليين نصت علي :

١ – أن تصاحب قوة برتغالية حملة فارسية علي البحرين والقطيف .

٢ – أن تتعاون البرتغال مع إيران في إخماد حركات التمرد في بلوجستان ومكران.

٣ – أن تتحد الدولتان في مواجهة الدولة العثمانية .

٤ – أن تصرف حكومة إيران النظر عن جزيرة هرمز وألا تتدخل في أمورها الداخلية

وقد واصل الشاه إسماعيل الصفوي استقواءه علي الدولة العثمانية السنية بالأوربيين حيث طلب عقد معاهدات صداقة مع الأسبان والمجريين لكن موته عطّل تحقيق عقد هذه المعاهدات .

ولم يكن هذا الاتجاه من العداء المذهبي ضد الجناح السني قاصراً بعد ذلك علي الشاه إسماعيل الصفوي بل كان إسماعيل مؤسساً ومرسخاً له ، فقد ترتب علي هجوم الشاه نادر شاه التركماني علي الهند ١٧٤٠ م ، وصراعه مع الأفغان وهم من السنة ، أن أتيحت الفرصة للمستعمرين البريطانيين في توطيد أقدامهم في الهند وسيطرتهم علي المزيد من أراضيها علي حساب الدولة السنية هناك مقابل تبادل للمصالح بين البريطانيين والإيرانيين في الخليج العربي حتى ولو كان علي حساب القوي السنية العربية.

ولاشك أن ذلك يشير إلي غلبة المصالح السياسية والاقتصادية علي البعد الديني ، وكذلك إلي عمق الصراع المذهبي الذي يصل إلي حد الاتفاق مع غير المسلمين واستعدائهم علي إخوانهم في الدين في هذه الفترة التاريخية علي الأقل .

**********